

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ دَدَهُ) (طه: ٥٠)
د. عبد الله عبد الكريم أستاذ علم المفسيولوجيا العصبية

إن كل شيء في الخليقة هو إعجاز كل خلية، كل عضو، كل نشاط فيها؛ لكن الإعجاز هنا في المهدية بعد المخلق، هنا المهدية ليست المهدية الإمامية، بل المهدية إلى أمور تضمن الحياة والمديومة واستمرار الأجيال. لترى ماذا يقول المفسرون: قال ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زوجه، وعنه: جعل الإنسان إنساناً والحمار حماراً والشاة شاة. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، وسوى خلق كل دابة. وقال سعيد بن جبير في قوله: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ دَدَهُ)
قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولما للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من المناكح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في المخلق والمرزق والمناكح⁽¹⁾. ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأنهى كل مخلوق خلقه الماثق به، على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاتة. (ثم هدى) كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه المهدية الكاملة المشاهدة في جميع المخلوقات. فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه. حتى إن الله أعطى الحيوان البهيم، من العقل، ما يتمكن به من ذلك. وهذا كقوله تعالى: (الَّذِي أَخْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ⁽²⁾).

فالذي خلق المخلوقات وأعطىها خلقها الحسن، الذي لا تقترب العقول فوق حسنة، ويهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة⁽²⁾. يق ول الإمام القرطبي: قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدسي: أعطى كل شيء زوجه من جنسه، ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكته. وعن ابن عباس: ثم هداه إلى المألحة والمجتمع والمناكحة.

وقال المحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صلاحه، وهداه لما يصلحه. وأعطى كل شيء صورته: لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولما خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

وقال المضحاك: أعطى كل شيء من المنفعة المنوطة به المطابقة له. يعني الميد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسماع. وقيل: أعطى كل شيء ما ألمهمه من علم أو صناعة. وقال المفراء: خلق الرجل للمرأة، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث، ثم هدى الذكر للأئم⁽³⁾. فالتقدير على هذا: أعطى كل شيء مثل خلقه⁽³⁾.

وفي زاد المسير للإمام ابن الجوزي:

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)
فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أعطى كل شيء صورته، فخلق كل جنس من الحيوان على غير صورة جنسه، فصورة ابن آدم لا كصورة البهائم، وصورة البعير لا كصورة المفرس، روى هذا المعنى المضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد: وسعيد بن جبير، والمثاني: أعطى كل ذكر زوجة مثله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس: وبه قال السدي، فيكون المعنى: أعطى كل حيوان ما يشاكله. والمثالث: أعطى كل شيء ما يصلحه، قاله قتادة. وفي قوله: (ثُمَّ دَدَهُ) ثلاثة أقوال: أحدها: هدى كيف يأتي الذكر الأنثى، رواه المضحاك عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير. والمثاني: هدى للمنكح والمطعم والممسكن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والمثالث: هدى كل شيء إلى معيشته، قاله مجاهد. فإن قيل: ما وجه الماحتجاج على فرعون من هذا؟ فالمجواب: أنه قد ثبت وجود خلق وهدية، فلا بد من خالق وهدى⁽⁴⁾. ولو تمعن في المكائنات الحية ذر أن المهدية هذه جليّة في عدة أمور، وهي قدرة هذه المكائنات على تناول طعامها أو الحصول على رزقها، ثانٍ ببناء مساكنها وثالثاً ديمومة أجialis، أو الحفاظ على جنسها، فنبدأ بالأخيرة. من العوامل المهمة وربما أهمها للمحافظة على النوع هو المتقاء الذكر والأنثى في المعاشرة، وإنها المقدمة للتقطيع المبويبة، والمدافع لهذا موجود في جميع الحيوانات في أوقات

مختلفة، وربما أقوى وأطغى ما يكون في الإنسان، وأنه الشغل الشاغل لبني البشر منذ الأزل، فلو لما هذه الشهوة المتأججة والرغبة الجامحة الجاذبة بين الذكر والأنثى - لم يكن أحد يقدّم على هذا العمل، بل كان مدعّة للسخرية. ثم تبدأ بالبوبيضة المخصبة - أي الخلية الأولى التي تنقسم وتتكاثر لتكون المكائن الحي - من الحيوانات البسيطة إلى الإنسان يهيئ المخالق - سبحانه - لها ما يضمن لها أن تخصب، وهي الخطوة الأولى لبداية كائن جديد، ولوّلا عملية الإخصاب فلن ينشأ هذا الكائن، ففي الإنسان المقدّفة الواحدة من المسائل المنوّي تحتوي على ثلائة إلى خمسة ملايين حويّن منوي (Sperm)، بالرغم أن واحداً فقط من كل هذه الجمّوع المهايلة هو الذي يختار البوبيضة ويخصبها، لأنّ كثيراً من هذه الحيوانات تتسلّق وتنهك وهي تخوض سباقاً طويلاً نحو البوبيضة، وفي الأنثى فإن المببّض ينتج خلال فترة خصوبة المرأة عدة آلاف من البوبيضات لكن لا تصل إلى مرحلة النضوج والمطرّح إلى العدة مئات منها، كلّ هذا لضمّان إنتاج بوبيضة مخصبة، وهذا ينطبق على جميع الحيوانات الثديية، وفي عالم الحيوان الأمثلة على هذه كثيرة جداً، فالذباب المنزلي ينتج كمية من البوبيوض المخصبة لو توفرت لها المظروف المثاليّة وفقت كلّها، لغطى الذباب الأرض بسمك عدّة مترات خلال شهر واحد، ودودة الإيسكارس في معده الإنسان تطرح يومياً عشرين ألف بوبيضة، والمضفّدة الواحدة تطرح عدّة آلاف من البوبيضات كلّ مرة، وكلّ هذا ليضمن كلّ نوع استمرارية أجياله. وماذا بعد طرح البوبيضة المخصبة؟ إن البوبيضة المخصبة تحتاج إلى مواد غذائية لكي تبدأ بالانقسامات وهي أول خطوة من مسيرة الحياة. هو الله - سبحانه وتعالى - المكائن الحية لأنّها مختلفة من المسؤول لضمان هذا، أو هي لأنّها المكان الملائم لها، ففي الإنسان بعد أن تتنّقّل البوبيضة داخل قنّة الرحم (قناة فالوب) تبدأ بالانقسامات الأولى وتدفعها حركات الأهداب في جدار المقنة باتجاهه الرّحّم، حيث تبدأ بتكونين ما يشبه المجدور التي تمدها في جدار الرّحّم، لتمتص المواد الغذائية المهيأة لها كبداية، وهذه المواد الغذائية قد بدأت بال تكون منذ نهاية دورة الطمث، حيث يُشخّن جدار الرّحّم ويتم تزويدّه بأوعية دموية مكثفة لتزوّد المجدور بالأحصاء الأمينية والمسكريات والمادّون المازمة لانقسامات الـ (BLASTULA) ثم تبدأ المجدور بالانفراست لتكوين المشيمة ثم الجنين على مدى تسعه أشهر يتزود من الدّاء بجميع ما يحتاجه لحين تكامل الأعضاء واستعداد الجنين للخروج إلى الحياة. كل الثدييات حبّها الله بالرحم الذي يحتضن البوبيضة المخصبة، ويرعاها ويزودها بكل احتياجاتها، إلى أن يصبح مخلوقاً كاملاً الخلق. فما أروع هذا المكان، ولو خضنا في تفاصيل المتفاعلات والهرمونات التي تفرز خلال فترة إعداد الرّحّم للحمل وأثناء الحمل لرأيت العجب، ولربما يكون هذا موضوع مقال آخر - إن شاء الله.

وهذاك سلوكيات غريبة تسلكها الحشرات لضمان الماء لانقسامات البيوضة؛ فمنها ما يغرس البيضة تحت جلود الأبقار بواسطة آلة خاصة تمتلكها فتتغذى البيوضة على الأننسجة تحت الجلد وتتمر بمراحل النمو إلى أن تتكون حشرة باللغة فتحترق الجلد وتبدأ بالطيران، ومنها ما تقتذف بيوضها في أنوف الأغنام حيث تجد البيضة الأننسجة المرخوة فتنمو عليها إلى أن تتحول إلى حشرة كاملة، ومنها ما تضع بيوضها على أوراق الشجر في فترة الخريف ثم تفرز على قاعدة السوق الذي يحمل الورقة مادة صمغية يمنع سقوطها، وتختلف الورقة على البيضة في فترة الشتاء وتحافظ عليها من المظروف الجوية إلى أن يحين وقت الربيع فتنمو براعم جديدة في مكان الورقة وحيينها تنفس البيضة وتتغذى على هذه البراعم إلى أن تتحول إلى حشرة كاملة. لو كنت من سكان الصحراء أو الريف أو كنت من هواة السباحة فيها - فإنك تصادف خنفسة تدفع بكرة صغيرة بقطار سنتيمترتين تقريباً وأحياناً تتعاون مع خنفسة أخرى ولو تابعتها سترى أنها وضعتها في مكان أمن بعيداً عن الفضوليين. ماذا تعتقد؟ هل أنها أصبحت من هواة كرة القدم، مجازة للعصر؟ إنها تؤدي وظيفة أنيبل من هذا. إن هذه الكرة تتكون من روث الحيوانات وهي غنية بالمواد الغذائية الملائمة لنمو يرقات الحشرات، وضفت فيها بيضتها وصنعت منها كرة ووضعتها في مكان آمن، حيث إن البيضة ت نفس وتنقسم خلاياها مستمددة غذاءها من المواد الغذائية المتوفرة في هذه الكرة، إلى أن تصل إلى مرحلة الاعتماد على النفس.

ومن الحشرات ما تبني كوخاً هرمياً صغيراً، في قمته فتحة صغيرة تقوم الحشرة هذه باصطياد حشرة أخرى وتنقتها وتضعها في الكوخ، ثم تضع بيضها عليها، وتقوم بإغلاق المفتحة العليا للكوخ وعندما تفقس البيضة تتغذى الحشرة الصغيرة على الحشرة الضحية إلى أن تصبح حشرة كاملة فتخترق القمة العليا وتبدأ بالطيران. إن هذه الأمهات ستموت ولن ترى الأجيال المقادمة، مع هذا فإنها تسلك هذه السلوكيات الغريبة للمحافظة على ذوعها من المانقراض، وغالباً أنها لا تدري لماذا تفعل هذا، لكنه إلهام رباني مبرمج في أدمنتها، مثل برامج الكمبيوتر تنفسه، فهل هناك هداية أروع من هذا؟ ولو فصلنا في هذه السلوكيات يمكن أن نكتب فيها مجلدات. وبعد أن يتكمّل الجنين ويخرج إلى الدنيا في كثير من المكائنات - وبالذات الثدييات - فإن أول شيء مهم يجب أن يمارسه ولما يستطع أحد أن يعلمه إياه تعليماً هي الرضاعة، فإن لم يجده فمصيره الموت، فالمولود من الثدييات يجيد الرضاعة، فمن علمه هذه، إنما أن تكون هداية ربانية، وبعد الولادة فإن كثيراً من وليد الحيوانات - وكذلك الإنسان - يحتاج إلى رعاية زمنية متغيرة وربما يكون الإنسان أطولها وأرهقها للأم، وهنا تبدأ الأمومة، وما أدرك ما الأمومة؟ إنها حقاً معجزة، يتحول خلالها المقط إلى أسد، والمداجحة إلى نمر، وتظهر سلوكيات عجيبة في الحيوانات لحماية الوليد الصغير ورعايته، وكلها عوامل لاستمرارية الأجيال ومنعها من المانقراض.

إن الرعب والرهبة التي في نفس المقط تجاه الكلب تتداشي في فترة الأمومة وتلاحمها تحتضن أولادها وترضعهم معظم أوقاتها، وإذا اقترب منهم كلب تراها تكسر عن أنبيتها وتبرز مخالبها وتتنفس وتنتحدى وتتأهب للهجوم على الكلب، بينما هي في أوقات غير الأمومة تطلق أرجلها للريح، وتعدو مسرعة لتنجو بجلدها - بمجرد رؤية الكلب من بعيد - والمداجحة في فترة الأمومة تتحدى المقط والكلب وأي كائن آخر يقترب من صغارها، وهناك من المثلثيات ما تحمل صغارها في أكياس تحت بطنها طيلة فترة إرضاعها، وهناك عقارب تحمل صغارها على ظهرها إلى أن تستطيع الاعتماد على النفس. ومعظم الطيور تجلب لصغارها الطعام وعيونها لم تتفتح على الدنيا بعد. فتلقّمها إياها المصغار لا تعرف غير فتح فمها وابتلاع الطعام. وفي إحدى المقصص العصرية عن الحروب لفت نظري منظر له مغزٌ رائع عن الأمومة، المشهد هو مجتمع من الملاجئ في قارب هاربين من الحرب ويتشاردتهم طائرة مروحيّة عسكرية تطلق عليهم الرصاص، وفي المقارب أمرأة تحتضن وليدها وتلتقيه عليه وتنقطيه بجسدها، الأم تعلم أن في هذا العمل حتفها ولكنها لا تتردد فيه لتموت هي عسى أن يعيش ولیدها، فهل هناك معجزة الأمومة، إنها تتحدى جميع المبادئ المادية التي تعرف في الخلية، إن الحياة نتاج المادة لن تضحى بنفسها لغيرها، لكنها معجزة الخالق. إنها الأمومة، ولهذا يقال: إن الأمومة تجمع المتناقضات؛ فالأم في حالة المخاض تعاني آلاماً لا تطاق، لكنها سعيدة بمولودها الذي تراه بعد هنيهة. ولهذا كانت الجنة تحت أقدام الأمهات.

المسألة الثانية: هي السلوكيات التي تسلكها الحيوانات للحصول على رزقها، فجميع الحيوانات تسعى حيثاً للحصول على ما تقتات عليه وتسد رمقها، وهذا ذري أن الأجناس والأنواع المختلفة من الحيوانات لها تصرفات وحركات ذات مهارة عالية، وربما لو حاول الإنسان العادي أن يقلّدها فلن يستطيع. فالعنكبوت تبني بيتاً خفيفاً واهيًّا لكنه ذو هندسة جميلة وتحريك حركات بزوايا محدودة ومسافات معلومة لعمل خيط، وأخر بزاوية أخرى ومسافة أخرى، والثانية والثالثة والرابعة إلى أن تراها قد أكملت شكلها هندسياً جميلاً، ثم تراها تجلس في أحد المزوايا منتظرة حشرة تقع في هذا الشرك، فتسارع إلى لف خيوط أخرى حولها وتتكلها حتى تصبح بها حول ولما قوّة، ثم تغرس أنبيابها في جسمها وترتشف عصارة جسمها فلما يبقى فيها إما القشرة الخارجية، وأنت تنظر إليها وكأنها سليمة ولما تدري أن العنكبوت قد امتصت كل عصاراتها. ومثلاً آخر: يرقة أسد النمل: إنها تملك فكوكاً طويلاً وتبني في الأرض وبالذات في المناطق ذات التراب المذاعام - حفرة على شكل قمع في شكل هندسي جميل، ولو شاهدت أحد الأطفال التي تصوّر عملية البناء من أولها لآخرها لسجدت لرب العالمين، كيف ألمهم هذا الكائن هذه الحركات العجيبة والتي بها تقذف بذيلها وأرجلها التراب، وتحضر وتكرر العملية إلى أن تبني هذا الشكل الهندسي الرائع، ولماذا هذا المشكّل بذات. إنها مصيدة فإن هذه اليرقة تختبئ في قاع الحفرة هذه حتى إذا مررت نملة أو حشرة أخرى من حافة هذه الحفرة تنزلق إلى قعرها، وسطح الحفرة من الداخل أملس جداً بحيث كلما حاولت المضدية المتسلق والخارج من الحفرة تسقط ثانية إلى القعر قبل أن تصل إلى المحافة. فتخرج يرقة أسد النمل من مخبئها متوجهة لتحتفظ بالوليمة.

المراجع:

١- مختصر تفسير ابن كثير (الجزء الثاني) ص 483

٢- تيسير المكريم الرحمن في تفسير كتاب المتن للشيخ عبدالرحمن السعدي (الجزء الخامس) ص 163

٣- تفسير القرطبي للإمام أبي عبدالله القرطبي (الجزء الحادي عشر) ص 85

٤- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي (الجزء الخامس) 203